لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الأول : تفسير الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة البقرة

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ من أعظم النعم على العبد أن يُمدّ له في العمر ويُوفّق لعمل صالح، فما أعظمها من نعمة تستحقّ الشكر ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤].

ومن أجلّ نعم الله عزّ وجلّ وأفضل مننه وأكرم عطاياه **نعمة الإيمان**، فهي النعمة العظمى والمنة الكبرى من الله عز وجل المنان على من يشاء من عباده وهو الرحمن ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] .

وبالإيمان: تُنال سعادة الدنيا والآخرة، ويُنال الاطمئنان والراحة وقرار القلب وسكون النفس، وسعادة الإنسان. وقد وعد بذلك سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وُعد بأن يحييه الله عزّ وجلّ حياة طيّبة. **وهذا في الدنيا**.

أما **في الآخرة** فهناك:

- الحياة الحقيقية
- والنعم العظيمة
- والعطايا الجسيمة
- والآلاء الكثيرة
- بالإيمان تحصل النجاة من النيران.

وثمار الإيمان عظيمة لا يمكن حصرها في كلمات مختصرة، لكن نعود فنقول: **الإيمان أجلّ العطايا وأعظمها**، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ

نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] ولهذا كان من الواجب أن :

- نذكّر بعضنا بعضًا بهذه النعمة
- ونشكرها
- ونطلب من الله المزيد
- ونفتح لأنفسنا الأبواب والطرق التي مَنّ الله بها علينا لزيادة الإيمان.

وآية الشورى ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء﴾ بيّنت أمرًا عظيمًا، أنّ بالكتاب والسنة وعلى ضوئهما يتعلّم المؤمن الإيمان، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ **فإذا تعلّمنا الكتاب تعلّمنا الإيمان** .

ونحن في حاجة شديدة إلى دراسة الإيمان وتلقّي شؤونه من القرآن على ضوء ما جاء في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأركان الإيمان العظيمة وأسسه المتينة جاءت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم وعدّها ستًّا في حديث جبريل المشهور: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))[1]، فهذه ستة أصول عظيمة يبني الإنسان حياته عليها وأعظم ركن من أركان الإيمان **الإيمان بالله**، وإذا تحدّثنا في أيّ ركن غير الإيمان بالله فإننا نعود إلى ركن الإيمان بالله، وهذا يجعلنا نعلم أن :

فإذا **عرفنا رسل الله وكتب الله وملائكة الله ولقاء الله والقدر الذي قدّره الله فإننا نزداد معرفة بالله.**

[1] رواه البخاري ومسلم

فهذا فضل عظيم مِن الله، أن عرّفنا بنفسه بطرق شتّى، وكلّ هذا مجموع في القرآن وفي سنة نبينا صلى الله عليه وسلم﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فبهداية القرآن نهتدي، وبالإيمان وأنواعه نعتري.

وهذا هو أول لقاءات الشهر المبارك رمضان ١٤٣٤هـ أسأل الله عزّ وجلّ أن يمنّ علينا بإتمام صيامه وقيامه وأن نكون ممن آمن حق الإيمان فانتفع بالفرص التي هيأها الرحمن لخلقه.

وهذا اللقاء نودّ أن نناقش فيه **قصة إبراهيم عليه السلام**؛ إيمانًا منّا بأنه **خليل الرحمن**، إيمانًا منا بأن تصديقه والثناء عليه **قربة إلى الله** كما نفعل في التحيات، فإننا نبتهل إلى الله أن يصلي على نبينا محمد كما صلى على إبراهيم. فمن هو إبراهيم عليه السلام عند الله؟ وما حاله؟ إذا عرفنا مواقفه من خلال القرآن وما أخبرنا به الله عزّ وجلّ عنه سيكون هذا **مما يزيد الإيمان** بهذا الرسول، والأهم أنه **يزيد الإيمان بربّنا** الذي شرع هذا الشرع وقدّر هذه الأقدار، سنعرفه ونعرف **كيف يعامل أولياءه**.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

البقرة: ١٢٤ – ١٢٩.

جاءت هذه الآيات –التي اخترناها للدراسة في سورة البقرة– **في سياق وصف حال اليهود والنصارى** وإخبار الله عزّ وجل لنا بأن اليهود والنصارى يجتمعون بأنهم لا يرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ملّته وعن أتباعه حتى يتّبع أتباعه ملّتهم، وهم يدّعون نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، فبيّن الله سبحانه وتعالى الحقّ، وأخبر عن حال من أحوال إبراهيم وأنّ ملّته الحنيفية، فهذا إبراهيم وهذا حاله، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حاله

قراءة تفسير الآيات من تفسير السعدي والتعليق عليها:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

يطلب أن تكون الإمامة كما هي فيه في ذريته، فقال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ سنبدأ بفهم هذه الآية ثم نتابع إن شاء الله بقية الآيات ..

ستكون طريقتنا دراسة الآيات من خلال تفسير مجمل ونختار تفسير الشيخ السعدي لذلك.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "**يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام**" من قبل جميع الطوائف التي تعرف الدين، من قبل جميع الطوائف الذين أتتهم الرسالة، بل حتى المشركين في قلوبهم إجلال لإبراهيم عليه السلام، لذلك يقول: "**المتّفق على إمامته وجلالته الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه**" أي تدعي النسبة إليه فينسبون أعمالهم وأحوالهم إلى إبراهيم عليه السلام، الذين كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه بل "**وكذلك المشركون**" يعني أهل الكتاب يدعون النسبة إليه، وكذلك المشركون يدعون النسبة إليه يخبرنا تعالى عن أي حال؟ قال: "**أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات**".
الذي ابتلاه هو الله، إذن **من أفعال الله (الابتلاء)**.

يقول: "**أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات**" فما هي هذه الكلمات؟

يقول: "**أي: بأوامر ونواهي**" إبراهيم عليه السلام ابتلاه الله بكلمات، والكلمات هي الأوامر والنواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده والحكمة من الابتلاء: "**يتبيّن الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي :**

- **ترتفع درجته**
- **ويزيد قدره**
- **ويزكو عمله**
- **ويخلص ذهبه**

وكان من أجلِّهم في هذا المقام، الخليل عليه السلام".

نرى الفوائد التي سنخرج بها من هذه الجملة:

الله عزّ وجلّ يخبرنا عن حال من الأحوال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ فالله الرب العظيم ابتلى إبراهيم، و(إذ) لما تأتي في القرآن ويأتي بعدها خبر غالبًا يكون معناها: واذكر هذه الحال، حال ابتلاء الرب العظيم إبراهيم بكلمات، أي بأوامر، ومن المؤكد أن **اسم الرب هنا له أثر عظيم** على فهمنا، فإنه الرب الذي يربي عباده ويحوّلهم من حال النقص إلى حال التمام، فابتلاؤه لإبراهيم عليه السلام هي سنته وعادته في خلقه، فيقول الشيخ: "كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده"

ولكن ما الحكمة من الأوامر والنواهي وهو سبحانه وتعالى غني عن خلقه؟

- ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان.
- ولتعرف نفسك أيها المدعي فلا تدّع المحبة والصدق والإخلاص، ولا تدّع الحب لله وللجنة ولحسن اللقاء، ولا ترجو هذه الشؤون وأنت في الاختبار حالك حال لا تسُرّ!

"**فيتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق**"الصادق ماذا ستكون حاله؟ "**ترتفع درجته بصدقه ويزيد قدره ويزكو عمله**" كل هذا بسبب نجاحه في الاختبار.

"**ويخلص ذهبه**" فهو صاحب قلب من ذهب ولكن قد يأتي عليه من الوسخ ما يحتاج إلى نار لتخلصه، **فتأتي البلاءات تخلص هذا الذهب** .

"**وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام**" أي من أجل من ابتلي الخليل عليه السلام "**فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه**" هذا فعل إبراهيم عليه السلام الذي هو قدوتنا وهو خليل الرحمن. فماذا فعل الله له لما أتم؟

يقول الشيخ: **"فشكر الله له ذلك ولم يزل الله شكورًا"** نحن على يقين أنه هو الشكور الغفور، مايتقرب منه متقرّب يريد صدقًا وجه ربّه فيحسن إلى نفسه بامتثال أمره إلا كان الله شكورًا، فشكر له عمله فقال –وهذا شكره له بعد حسن عمل–: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فانظر إلى هذا الفعل من أفعال الله وكيف هو الذي يقدم بعضًا من خلقه **الصادقين** على مرّ الأزمنة فيجعلهم أئمة ويُبْقي آثارهم إلى يوم الدين.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهذه الإمامة العظيمة هي **المنة** التي لا يستطيعها الخلق إنما هي **عطية من الرب**، فلا **المناصب** ولا **الدرجات العلمية** تجعل العبد صاحب إمامة، إنما يرفع الله من يشاء من عباده ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ " **أي:**

- **يقتدون بك في الهدى**
- **ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية**
- **ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ، والتعظيم من كل أحد**"

فإذن هذا القدوة سيدل الناس على الهدى ويمشي الناس خلفه ويحصل له الثناء والتعظيم من كل أحد، وهذا مشاهد معلوم أن لإبراهيم عليه السلام الثناء من كل أحد، والله هو الذي جعل له **لسان صدق** في العالمين، فسبحان من يطيب آثار عباده الصالحين! فاللهم طيّبنا وطيّب آثارنا واجعلنا من المؤمنين.

وهنا علينا أن نراجع أنفسنا في معرفتنا بإبراهيم عليه السلام الذي هو قدوة في الخير، ورفعه الله، علينا أن نعتني بمن هذا شأنه عند الله.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: **"وهذه –لعمر الله– أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام، شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله"**.

ما هي أفضل درجة؟ أن تكون إمامًا للناس يقتدون بك.

ولماذا هي درجة عظيمة؟ السبب أن أجورهم جميعًا في ميزانك، **ليس مطمعًا في ثنائهم، إنما الطمع في ثناء الله**، فإذا كثر –مع صدقك– من يتبعوك على الهدى والصلاح **وأنت أعظم ما عندك أن تنشر بينهم الهدى ولا يهمك الأتباع**، فهذه أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون لأن الميزان يُثقَّل بعمل العبد وبعمل من دلّهم على العمل!

فاللهم ثقّل موازيننا ، واقبل أعمالنا ، واجعلنا هداة مهتدين إلى الطريق المستقيم.

يقول الشيخ: "**فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته، لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته، ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية**".

قال له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ لما اغتبط بهذا المقام وأدركه قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ طلب ذلك لذريته لتعلوا درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضًا من إمامته ونصحه لعباد الله، فهو لم يختص بشأن الإمامة لنفسه، إنما أحب أن يتكثّر الأئمة الصالحين .

قال الشيخ: "**وهذا أيضًا من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبتهم أن يكثر فيهم المرشَدون المرشِدون، هم بنفسهم مرشَدون وهم بنفسهم المرشِدون للطريق فلله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية**"

إنه يحب انتشار الرشد والمرشدين، ما يجد في نفسه غصة فيريد أن يكون هو المميز عن بقية الخلق، بل من حبه للهداية أحب لذريته أن تكون ممن استرشدوا وأرشدوا ، فماذا كان جواب الله له؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

"**فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) أي: لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم**

وهذا المقام؟" أي لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحطّ قدرها ، بماذا حط قدرها؟ بالذنوب والمعاصي، ظلم نفسه بالذنوب والمعاصي، أو تكون المصيبة العظيمة أن يكون قد وقع في الشرك الظلم العظيم.

لماذا لا يكون أئمة في الدين من ظلم نفسه؟ لمنافاة الظلم لهذا المقام.

ماذا يحتاج مقام الإمامة؟ يقول الشيخ رحمه الله: "**فإنه مقام آلته الصبر واليقين**" لا تنال إمامة الدين إلا بالصبر واليقين، والظلم للنفس بالمعاصي إنما يتخلى صاحبها وقت ظلمه لنفسه عن الصبر وعن اليقين، فإن العاصي لما يترك نفسه تفعل ما تشتهي فإن هذا دليل على :

- ضعف يقينه لما يلقى عند ربه
- وضعف صبره عن حبس نفسه عن رغائبها.

وهذا المقام مقام **آلته الصبر واليقين** ونتيجته **أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة**، لأنه متيقن بلقاء الله طالبًا لرضاه، فيحبس نفسه على طاعة الله، وهذا لا يكدّر عليه أن الإنسان لا بدّ أن يقع في الخطأ والذنوب وما منّا من معصوم، لكننا لنا رب غفور رحيم نطمع في مغفرته ونرجو في هذه الأيام والليالي أن نكون ممن أعتقه من النار.

يقول: "**هذا مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيمن من الإيمان والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة والشمائل السديدة والمحبة التامة للرب والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟!**" إن من كان إمامًا في الدين كان محبًّا لربّ العالمين، شديد الخشية والخوف منه، وإذا أخطأ كان من المنيبين كثير العود والرجوع للرب العظيم.

قال: "**ودل مفهوم الآية، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها**" فنسأل الله مغفرة الذنوب وإزالة العيوب والعوائق عن هذا الطريق المستقيم.

يقول: "**ثم ذكر تعالى نموذجًا باقيًا دالًا على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده، ركنا من أركان الإسلام، حاطًا للذنوب والآثام**).

أي أن الله عزّ وجلّ أخبره أنه جعله إمامًا للناس، وهذا الخبر أتى بعده مباشرة ما يدل عليه، نموذجًا باقيًا دالاً على إمامة إبراهيم :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ المقصود به البيت الحرام ، سنفهم من خلال التفسير ما معنى مثابة..

الله عزّ وجلّ هذا فعله، وهذا فعل عظيم لو تأمّلته رأيت أمرًا عظيمًا ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ فهو مثابة وأمن، ويأتينا الأمر ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ -الذي نحن في صدد النقاش عن مكانته- ﴿مُصَلًّى﴾ .

كما جعلنا البيت مثابة ﴿وَعَهِدْنَا﴾ وهذا فعل من أفعال الله ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهذه المفروض تكون أحوال الخلق في بيت الله نرى هذه الآية العظيمة ودلالتها من خلال كلام المفسر . رحمه الله .:

يقول: "**ثم ذكر تعالى نموذجًا باقيًا دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرم الذي جعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، حاطا للذنوب والآثام**".

إذن هذا البيت العظيم من مكانته أن جعل قصده والحج إليه ركنًا من أركان الإسلام لا يقوم الإسلام إلا به، ويسقط هذا عمن لا يستطيع، لكن الإسلام لا يقوم إلا بقصد هذا البيت، وهذا البيت العظيم قصده حط للذنوب والآثام، وهذا البيت فيه من آثار الخليل وذريته ما عُرفت به إمامته، وتُذُكرت به حالته .

"**وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعًا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يتردّدون إليه، ولا يقضون منه وطرًا، وجعله ﴿أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار**".

والآن سيتضح معنى يثوبون أكثر، يقول: يترددون إليه ولا يقضون منه وطرًا.

يثوبون: أي يرجعون، يثوبون إليه: يترددون تردد **المشتاق**، ولا يجدون في أنفسهم أنهم شبعوا منه، بل قلوبهم ممتلئة شوقًا إليه، وهذا شأن عجيب لهذا البيت لا يعرفه إلا من ذاقه! فإنك تظن أن بقاءك فيه ساعات سيجعلك لا تشتاق إليه مرة أخرى، فتجد نفسك ما أن تتركه إلا وقد امتلأ فؤادك شوقًا للعود إليه!!

فما أعظم حال الخلق مع هذا البيت! فتراهم لا يقضون منه وطرًا ولا يجدون في أنفسهم إلا دافعًا يدفعهم لهذا البيت العظيم ولزيارته، وقد تكون هناك من المصاعب والأحوال التي معها لا يستطيعون أن يتمتعوا كل التمتع، وتجدهم يجدون الحرج في سفرهم لكنهم يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه .

ولذلك يقول الشاعر:

جعل البيـت مثـــابًا لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

أي: لو بقوا الدهر فيه لا يقضون وطرهم منه، أي لا يشبعون منه، وإنك ترى الرجل يبقى في هذا البيت الساعات الطوال يشتغل بالذكر والتسبيح وأحيانًا بالصمت وعدم الفعل، لكنه يشعر أنه يثقل عليه الخروج منه! ولو عاش فيه ما عاش الخروج من هذا البيت والرحلة عنه تكون غاية في الصعوبة، وهذا من عجيب فعل الله في هذا المكان العجيب، في هذا المكان الذي أراده الله مثابة للناس يتحصل للناس في هذا البيت المنافع الدينية والدنيوية، يتردّدون إليه ولا يقضون منه وطرًا.

وجعله أيضًا آمنًا يأمن فيه كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات والأشجار، وهذا أمر معروف في الشرع أنه يحرم على زائر هذا البيت أن يؤذي شيئًا من الطير ولا شيئًا من الشجر، ولما تفكر في هذا الأمر تعلم أن تعظيم البيت استقر حتى في أهل الجاهلية، ويسّر الله لأهل الجاهلية أن يعظّموا البيت، والأمن دام في العصور والأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام في هذا البيت العظيم.

وما تفكّر فيه دائمًا هو أنّ الله عزّ وجلّ بمنه وكرمه شرع للخلق شرائع وجعل لهم أماكن يجتمعون فيها تسدّ لهم حاجاتهم وتحقّق لهم أغراضهم، فسبحان من شرع، وسبحان من أودع في القلوب هذه المشاعر.

يقول: "**ولهذا كانوا في الجاهلية – على شركهم – يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمةً وتعظيمًا، وتشريفًا وتكريمًا**".

واتخذ الخلق هذا البيت مكانًا يثوبون إليه، وأيضًا اتخذوه مكانًا ينتفعون منه في دنياهم ولا بأس عليهم في ذلك، فإن منافع الدنيا إذا لم تعارض منافع الآخرة فهي خير وتزيد من الانتفاع بهذا البيت.

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يقول الشيخ: "**يحتمل أن يكون المراد بذلك، المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا، ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين**" يعني أمر الله لنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ركعتي الطواف، ويستحب أن تكون خلف مقام إبراهيم ويبقى ذكرى إبراهيم في بناء الكعبة وحتى بعد انتهائك من الطواف تذكّر بأنك تصلي خلف مقامه فترتبط به في هذه الشعيرة، وهذا بقول الشيخ "**وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مضافًا، أي مقام مفرد، فإذا أتى مفرد مضاف دل على العموم**" بمعنى كلمة (مقام) مفردة فإذا أتى مفرد مضاف إلى إبراهيم فإذا أتى مفرد مضاف دل على العموم يقول: "**فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج**" إذن واتخذوا من مقامات إبراهيم كلها التي في الحج مصلى لكم **لذكر الله** "**وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: {مُصَلًّى} أي: معبدًا، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى**".

رجّح القول الثاني "**لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له**" اختيار الشيخ أن مقام إبراهيم جميع مقامات الحج.

يبقى الجزء الثالث من الآية : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ يقول الشيخ: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ يقول الشيخ : "**أي: أوحينا إليهما**" أعلمنا بمعنى أوحينا "**وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات و الأقذار**" وهذا أمر عظيم علينا أن نعتني به، أن نطهّر بيت الله من نوعي الأذى:

١. الأذى في العقيدة
٢. والأذى في السلوك .

نسأل الله أن يصرف عن هذا البيت وعن بلاد المسلمين أهل الشرك الذين يرفعون أصواتهم بنداء غير الله عند بيت الله، وهذا أكثر ما يزعجنا لما نكون طائفين،ذاكرين في البيت الحرام، لكن نسأل الله بمنّه وكرمه وهو القادر على إزالة الشرك وأهله أن يزيل آثار هؤلاء من بلادنا ومن بلاد المسلمين، فلا يبقى إلا التوحيد له في الأرض و يبقى الدعاء له في بيته خاصة.

يقول: ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، قدّم الطواف، "**لإختصاصه بالمسجد الحرام ثم الاعتكاف، لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى**" الطواف خاص بهذا البيت والعكوف خاص بالمسجد ، والركع السجود به وبغيره.

قال: "**وأضاف الباري البيت إليه لفوائد، منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك**".

وهذا حق، فإنك لما تسمع أن هذا بيت الله فيكون عندك بذل للجهد في تطهير هذا البيت، فلا تقم بما يؤذي وتحاول أن تمنع وتطهر البيت من أي أذية، ولا يغرك اليوم أن البيت قد اعتُني به غاية العناية والحمد لله نسأل الله أن يديم فضله علينا بهذه العناية ويجعلها في موازين ولي أمرنا، لكن لا يغرك أن هناك من يعتني، فأنت لابد أن تظهر لربك حرصك وحبك بأن تعتني بتطهير بيته، سواء كان هذا من القاذورات المعنوية أو الحسية، فلا ترفع صوتك، وتنه من يرفع صوته، فلا تؤذي، وتنه من يؤذي. وللأذية في البيت صور كثيرة. أسأل الله أن يرشد جاهلنا ويوقظ غافلنا – اللهم آمين–.

قال: "**ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه**".

فأضاف البيت إلى نفسه أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، فمن ضمنه أمر لتعظيمه وتكريمه، أي أن هذا بيت الله تقرب إلى الله بتعظيم بيته، تشتاق لبيته، وتحب أن تكون ممن تمتع بقضاء وقته في بيت الله متقربًا إلى الله، لكن يعيب علينا أن كثيرًا منّا ينسى أن هذا البيت بيت الله، ينسى أن إضافة هذا البيت إلى الله يجعله عظيمًا في نفس المؤمن، فلا يكون من المؤمن إلا العناية به والرعاية له، وهذا يكون بألا تقضي ساعاتك في هذا البيت إلا بعبادة وطاعة.

وإن أعجب ما نرى من مخالفة اليوم أن تُقضى الساعات في البيت العظيم، في بيت الله قضاء لا يقضيه الإنسان في بيت من يُكرم، فإنك ترى ظاهرة مثل ظاهرة التصوير في البيت الحرام تشين وتؤلم! لأن فيها من التعدّي على حرمات الخلق، وفيها من مظاهر الرياء ما فيها، والعجب أن يرفع يديه بصورة الداعي من أجل أن يُصوَّر بأنه يدعو الله عند الكعبة! يكون في هيئة الساجد ويطلب من أهله أن يصوروه! أو يتحوّل الأمر كأنه في مكان سياحي وتجتمع العائلة وتقف وتتصور وخلفيتها الكعبة المشرفة!.

هذا كله لا يليق، نعظ خاصتنا ونرجو من الله أن يكشف الغمة عن عامتنا، غير ماتراه من استعمال هذه الأجهزة في هذا المكان العظيم، فما أن يدخلوا إلى أن يخرجوا وأبصارهم على شاشاتهم وأيديهم تكتب وتستقبل، والأعظم من هذا من ظهرت عليه آثار الاستقامة تراه مشتغلا بقراءة كتاب الله ثم تأتي نفسه الأمارة فتأمره أن يفتح جواله، فيقرأ، فيبتسم، فيرسل، ويقرأ آيتين، ثم يكمل مراسلة! فما أعظم الخطب، ما أعظم ما نحن فيه من عدم التعظيم!!

نستحي من الله أن يكون هذا حالنا في بيته، وإنا والله رأينا والله أعلم أنه كلما زاد تيسير الوصول وزادت الأماكن سعة وراحة وبرودة زاد في نفوس الناس انحرافًا عن المقصود في معاملة هذا البيت، كنا نتأمّل أن زيادة المساحات، ووجود الهواء البارد سبب لصلاة خاشعة، لكنها اغتنمت في خلاف ذلك والله المستعان .

على كل حال حق هذا البيت عظيم، وهذا البيت العظيم يذكرنا دائمًا بإبراهيم عليه السلام إمام الموحدين.

فاللهم اجعلنا على طريقه وطريق نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وارحم ضعفنا واجبر كسرنا، واملأ قلوبنا إيمانا بك وبأنبيائك وبكتبك.

وإن شاء الله يكون لنا موقف آخر مع إبراهيم . عليه السلام . متى تيسر ذلك في الآيات التي نختارها.

من فضل الله تم لنا اللقاء الأول من لقاءات رمضان عام ١٤٣٤ نسأل الله عزّ وجلّ أن يمدّ في أعمارنا ويمتّعنا بالصيام والقيام وعلى فهم كتابه سبحانه وتعالى.